التضمين القرآني في الشعر بين الورع والعبث

عصـــام الغزالـــي

مصـــر

مدخـــل:

كتب السعد على بابها:" أدخلوها بسلام آمنين."

قرأت هذا البيت على ناصية باب خشبي أثري عمره عدة قرون من معروضات جناح العصر العثماني في متحف سرتا (قسنطينة) هذه المدينة الجميلـــة الـــتي نلتقـــي فيها.فقلت لنفسي-أو قالت لي نفسي،وهي ليست على الدوام أمارة بالسوء- :

أدخل من هذا الباب مداخلتي، وأعبر تحت هذا التضمين إلى رحاب موضوعي:

"التضمين القرآني في الشعر بين الورع والعبث"

وعندما دلفت رأيت رهطاً من المنشدين عن يميني، وعن يساري رهطاً، فعلمت أنهم الشعراء، فريق في الجنة وفريق في السعير، وقرأت قول الله:

"والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد مـــا ظلمـــوا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون."(الشعراء 227/224)

و تذكرت أن رسول الله صلي الله عليه وسلم الذي قال: "إن من الشـــعر لحكمـــة." والذي شجع شعراءه من صحابته – رضوان الله عليهم- : حسان بن ثابت وعبد الله ابن أبي رواحة وكعب بن زهير، حين ذكر عنده الشاعر الجاهلي الفحل امرؤ القـــيس قال:"هو حامل لواء الشعراء إلى النار."

وإذا كان الشعر – كغيره من الفنون المباحة – حسنه حسن وقبيحه قبيح، فإن التضمين فيه من القرآن الكريم يرفع الحسن إلى قمة الحسن إذا أجيد، والقبـــيح منـــه يهوي إلي التهلكة، وربما يجوز لي أن أقيس ذلك– مع الفـــارق، والله لا يســـتحي أن يضرب مثلا ما بعوضة – على معنى قول الشاعر:

فلا تك كالراكب السبع كـــي يهـــاب، وأنـــت لـــه أهيـــب
وأبصر لنفسك كيف النـــزو ل في الأرض عن ظهر ما تركـــب

فما كل مرتقي يحمد إلا إذا ارتقاه من هو أهل له وبه خبير، والتضمين القرآني تمنطق ومبارزة بسيف البلاغة الأمضى يتيه به وينتصر الفارس الصنديد، ويتوه ويهلك الدعي والعيي والماجن.

والشاهد على ذلك أني حين توسطت ساحة الموضوع رأيت فيمن على يساري أبـــا نواس ينشد الملتفين حوله من خمرياته ومجونه وغزله الشاذ، وتبينت قوله:

فهو مغن لي وساق معاً ثم خدين بأبي من خدين
قولي إذا استويت عليه كقول قوم رحلوا سالفين:
سبحان من سخر هذا لنا يوماً ، وما كنا له مقرنين

فما من شك في أنه بهذا المجون يصدق فيه قول الله تعالي:
"يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين."(البقرة / 26)

تعريـــف:

التضمين ـــ لغة ـــ التكفيل والإيداع:

جاء في لسان العرب: ضمن الشيء وبه ضمناً وضمانا كفل به، وضمنه إياه كفله، وضمن الشيئ الشيئ أودعه إياه، كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر، وكـــل شيء جعلته في وعاء فقد ضمنته إياه، وكل شيء أحرز فيه شيء فقد ضمنه.

وجاء في المعجم الوسيط: تضمنت العبارة معنى أي أفادته بطريق الإشارة والاستنباط.

أما التضمين ـــ اصطلاحاً ـــ فعنه قال لسان العرب: المضمن من الشعر ما ضمنته بيتا وقيل ما لم تتم معاني قوافيه إلا بالبيت الذي يليه كقول النابغة:

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات أتيتهم بود الصدر مني

وجاء في المعجم الوسيط: التضمين عند علماء العربية على معان منها إيقاع لفظ موقع غيره ومعاملته معاملته لتضمنه معناه واشتماله عليه، ومنها أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقا بها:

وفي البديع – وهنا مناط بحثنا، وما زلنا مع المعجم الوسيط– :

(التضمين أن يأخذ الشاعر أو الناثر آية أو حديثا أو حكمة أو مثلا أو شطراً أو بيتاً من قول غيره بلفظه أو معناه).

وفرق العلماء بين الاقتباس والتضمين فخصوا الاقتباس بالأخذ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. يقول الخطيب القزويني :

" أما الاقتباس فهو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث ـــ لا على أنه منه ـــ أي لا يحدث خلط بين النصين، ولا يدعي الشاعر أو الناثر أن النص المقتبس من كلامه، وذلك بوضعه بين قوسين، كقول الحريري:

" أنا أنبئكم بتأويله" صحيح القول من عليله

والتضمين عند بعض الأقدمين مثل ابن رشيق في العمدة من السرقات الأدبية المباحة.

والتضمين هو ما يطلق عليه المولعون بالتخلص من المصطلح الموروث: "التناص" أي التقاء النصين.

من خصائص القرآن الكريم:

"الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً."(الكهف /1)

كلفنا به، وشرفنا به، وقوم ألسنتنا، وعلمنا البيان وحفظ اللغة، وخصه بصفات منها:

- أنه مقدس:"إنه لتنزيل رب العالمين."(الشعراء / 192)

"لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه."(فصلت / 42)

"لا يمسه إلا المطهرون."(الواقعة / 79)

"وما يعلم تأويله إلا الله "(آل عمران / 7)

- وأنه معجز:"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـــذا القـــرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا."(الإسراء / 88)
- وأنه محفوظ بوعد الله.
- وأنه :"بلسان عربي مبين."(الشعراء / 195)
- وتشرفت به العرب: "وإنه لذكر لك ولقومك."(الزخرف /44)
- وأنه يخضع نظريات الجمال ولا يخضع لها، ألم تر أن لقوله:

"مثل دأب قوم نوح"

جمالا أخاذا بينما النظرية البلاغية تفترض أن تتابع الإضافات يـــودي إلى النفـــور؟!

وكذلك هذه الميمات المتتابعة في قوله تعالى:

"وقيل يا نوح أهبط بسلام منا وبركات عليك وعلي (أمم ممن معك) (هود / 48)

والتي إذا أضيف إلي المكتوب منها ما يقتضيه التجويد تصل إلي عدد قياســـي فهـــي ليست تؤذي لا جهاز النطق ولا جهاز السمع، بل علي العكس تتألق وتمتع! فهل تجد ذلك في غير القرآن الكريم؟!

هذا الكتاب أذهل من جادلوا، وأعجز من حاولوا، وهدي من تأملوا، فمنهم من آمن عند سماعه كعمر بن الخطاب، ومنهم من كابر بعد اعترافه كالوليد بن المغيرة، ومنهم من أقر بعجزه أمامه كأبي العلاء والمتنبي.

ويروى أن ابن المقفع حين انزلق إلى محاولة مطاولة القرآن كسر أقلامه وأعلن هزيمته عندما بلغ قول الله تعالى:

"وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين" (هود /44) وسبحان من هذا كلامه!

هذه الخصائص التي اخترنا إيرادها هنا من خصائص القرآن الكريم إطار يجب ألا يغيب عن انتباه من يضمن شعره ـــ أو نثره ـــ شيئا منه.

هيمنة القرآن الكريم على اللسان العربي:

لما كان القرآن الكريم معينا لا ينضب يمتح منه البلغاء، ومحيطاً لا يحد وأفقا لا يسد يسبح في ساحله الفصحاء فقد فرض على أهل العربية ذوقه، ورقـــي عبـــارتهم بعبارته، وهيمن على لسانهم فاقتبسوا منه في مجالات كثيرة.

- ففي دعائهم:"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا."(البقرة / 286)

"رب ارحمهما كما ربياني صغيرا." (الإسراء ـــ 24)

"لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين."(الأنبياء / 87)

وغير ذلك كثير.

- وفي أمثالهم:"وشهد شاهد من أهلها."(يوسف / 26)

" ليس لها من دون الله كاشفة."(النجم / 58)

"هل جزاء الإحسان إلا الإحسان." (الرحمن / 60)

وغير ذلك كثير.

- ومن حكمهم:

"وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور."(آل عمران /185)

" ومن يتق الله يجعل له مخرجاً."(الطـــلاق / 2)

"إن مع العسر يسراً."(الشـــرح / 6)

وغير ذلك كثير.

- واتخذوا منه شيئا من شعاراتهم، فرفعوا على مجالس القضاء:

"وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل."(النساء / 58)

وكتبوا على المكتبات:

"فيها كتب قيمة."(المبينة / 3)

ونقشوا على المركبات:

"بسم الله مجريها ومرساها."(هـــود/ 41)

ولقد أعجبني ـــ مثلاً ـــ شعار على نصب في مدخل وزارة الري بالقاهرة يقول:

"ونبئهم أن الماء قسمة بينهم " (القلم ـــ 28)

وسرني أن سلاح الاستطلاع في أحد الجيوش العربية اتخذ رسم الهدهد علامـــة لـــه وشعاراً مستمداً من قصته مع نبي الله سليمان التي وردت في القرآن الكريم.

- كذلك كان الاقتباس من القرآن الكريم مما يثري الحوار ويغني في المواقف ويدعم الحجة، يروي أن الحجاج لما أمر بقتل سعيد بن جبير قال سعيد:"وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين." (الأنعام / 79)

فقال الحجاج: شدوا به لغير القبلة، فقال سعيد:

"فأينما تولوا فثم وجه الله."(البقرة 115)

فقال الحجاج كبوه لوجهه، فقال سعيد:"منها خلقناكم وفيها نعيدكم."(طه/ 55).

وهكذا كان أثر القرآن الكريم شاملاً في اللسان العربي، وكانت ألفاظه وتراكيبه أقباساً تتوهج بها هذه اللغة الشريفة.

التضمين في الشعر:

وكان مما دخلته لغة القرآن وأضاءته جمله وسطعت عليه تعبيراتـــه الإبـــداع الأدبي بمختلف صوره: المسرحية والرواية والقصة، والمقال والمقامة والخطبة، وقبل ذلك وبعده البيت والقصيدة.. أي الشعر.. فن العربية الأول وديوان العرب القديم. ولـــئن تأخر التضمين القرآني في الشعر وقتاً ما بعد نزول القرآن فإنـــه ازداد بمـــرور الـــزمن وبكثرة التأمل واستمرار الخشوع والدهشة أمام هذا الكتاب المبين، فرسخت الأيـــام هذا الفن وعددت فرسانه، وإن كان منهم من تألق ووفق ويثاب ومنهم من تحـــامق وانزلق ويستتاب.

درجات التضمين:

- التضمين في صورته الكاملة هو إيراد النص المنقول بمبناه ومعناه في النص المنقـــول إليه، مثل قول الأحوص محمد الأنصاري في الشوق إلى محبوبته:

إذا رمت عنـــها سلوة قـــال شافـــع من الحب:ميعاد السلو المقابر

ستبقي لها في مضمر القلب والحشـــا سريرة ود "يوم تبلي السرائر"

فإن عبارة "يوم تبلي السرائر" تحمل معنى يوم القيامة في النصين ووردت فيهما بدون اختلاف في الصياغة.

- لكن من التضمين أيضا ما ينتقل بالمعنى إلى معنى آخر، وقد ذكر ذلك الخطيـــب القزويني، وذلك كقول ابن الرومي:

لئن أخطأت في مدحك ما أخطأت في منعي

لقـــد أنزلـــت حاجاتي "بواد غير ذي زرع"

فإن عبارة "بواد غير ذي زرع" منقولة بدون تغيير في الصياغة من سورة إبراهيم/37 ولكنها أتت في الأبيات بمعنى يختلف عن معناها في السورة الكريمة.

- ويضيف القزويني كذلك جواز التغيير اليسير في النص لأجـــل الـــوزن أو غـــيره ويستشهد بقول أبي تمام في رثاء ابنه:

قد كان ما خفت أن يكونا إنا إلي الله راجعونا

فنص الشطرة الثانية من البيت مختلف عن قول الآية الكريمة:"إنا لله وإنا إليه راجعون" أما إذا نظم النثر المنقول أو غير فيه تغيير كثيف أو أشير في النص المنقول إليه إلى أنـــه قرآن أو حديث ليخالف طريق الاقتباس منهما فهذا صورة أخرى من التقاء النصـــين تسمي:(العقد)، ومن شواهده قول الحسين بن حسن الدمشقي:

أنلني بالذي استقرضت خطا وأشهـــد معشراً قد شاهدوه

فـــإن الله خـــلاق البـــرايا عنت لجلال هيبته الوجـــوه

يقـــول:"إذا تداينتـــم بديـــن إلي أجـــل مسمي فاكتبوه."

- وهناك بعد ذلك من صور التقاء النصين ما يسمى:"الإشارة والتلميح" مثل قـــول المتنبي:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

حالات التضمين:

نستطيع أن نميز بين أربع حالات للتضمين القرآني في الشعر، وهي:

- التضمين الإيماني:الناتج عن رؤية إسلامية شاملة ومعايشه للقرآن هدياً ووعيا، وفيه تتفاعل عاطفة الشاعر القرآنية مع نصه الشعري أخذاً وإعطاء وننبه إلي أن أغراض هذا النوع من التضمين لا تنحصر بالضرورة في شعر الدعوة أو الوعظ، بل قـــد تكون في غير ذلك ... حتى الغزل أو الهجاء.

وهذا تضمين نحفل به ونباركه، ومن أمثلته قول الشاعر:

قل للذين رجوا شفاعة أحمد: "صلوا عليه وسلموا تسليما"

وقول أبي عبيدة بن الحجاج في عضد الدولة:

بعثت لتتلو على العالميـــن بجودك وحي الندي والكرم
رأوك إلي المجد تدعو العباد "فالقوا جميعا إليك السلم"

وقول القاضي أبي بكر:

وظالمـــا قلـــت لـــه واعظا: الظلم مما ينكر العالمون
أقصر عن الظلم وأمسك يداً "فإنه لا يفلح الظالمون"

وقول الشاعر:

يريد الجاهلون ليطفئـــــوه "ويأبي الله إلا أن يتمه"

وقول شاعر آخر، وفي بيته تضمينات لا تضمين واحد:

أما والذي "أغنـــــي وأقنى" "وأطعم من جوع وآمن من خوف"
لما كان لي قلب سوي ما أخذته "وما جعل الرحمن من قلبين في جوف"

- **التضمين العقلاني:** الناتج عن إعجاب بلاغي بالقرآن ولمجرد دعم وجهة النظـــر وفيه يوظف الشاعر ثقافته القرآنية في اتجاه فكرته أخذاً فقط، وهو ما نقبلـــه ولا نرفضه، ومن أمثلته: قول أبي عبد الله الضرير:

أردت زيارة الملك المفدى لأمدحه وآخذ منـــــه رفدا
فعبس حاجبا فقرأت:"أما من استغنى فأنت له تصدي"

وقول أبي العتاهية في المهدي:

أتتـــه الخلافة منقـــــادة إليـــــه تجـــــرر أذيالها
فلم تـــلك تصلح إلا له ولم يك يصلـــح إلا لهـــا
ولو رامها أحـــد غيـــره "لزلزلت الأرض زلزالها"

وقول أبي الشمقمق:

خبزي من السوق ومدحي له "تلك لعمري قسمة ضيزى"

ومنه أيضا قول الشاعر:

ها أنا كالزرع جف حتى ليس لـــه في الـــزرع ظل
فأمنن بما شئت من نـــوال "إن لم يكن وابـــل فطـــل"

وقول كاتب محبوس في جماعة من أقرانه في رقعة استعطاف:

أطال الله عمرك في صلاح وعز يا أميـــر المؤمنينـــا
بعفوك أستجير فإن تجرني فإنك عصمـــة للعالمينـــا
ونحن الكاتبون وقد أسانا فهبـــا "للكـــرام الكاتبينا"

- **التضمين العبثي**: الناتج عن طبيعة ماجنة أو فكرة مستهترة، وفيه يهدر الشـــاعر المعدن النفيس ويلهو به، فتكاد تلوم من جعله في متناول يده، وهـــذا التضـــمين نعرض عنه ونزهد فيه، ومن أمثلته قول الشاعر:

وشـــادن قبلتـــه قبـــلة فكنت إذ ذاك من الفائزين
قلت له إذ جاد طوعا بها: "أزلفـــــت الجنة للمتقين"

وقول أبي فراس:

كان قضيبا له انثنـــــاء وكـــان بدراً لـــه ضياء
فزاده ربـــــه عـــذاراً تـــم به الحســـن والبهاء
لا تعجبـــوا، ربنـــا قدير "يزيد في الخلق ما يشاء"

وقول أبي نواس:

سالمهم واقتـــص مـــن أولادهـــم إن كنت ذا حنق على الكفار
واطعن برمحك بطن تلك وظهر ذا هذا الجهاد "فنعم عقبى الدار"

وقول نزار قباني:

"أشهد ألا امرأة إلا أنت"

- **التضمين العدواني:** الناتج عن عاطفة سالبة أو فكر مناهض، وفيه يتنكر الشـــاعر في ثوب قرآني ليضع الفخ ويزرع اللغم ويدس السم، وهذا التضمين نؤثمه ونحذر منه ونرده، ومن أمثلته قول شاعر معاصر:

أحللنـــا لكـــم الميتـــة والـــدم والخنزيـــــر

فليخبر حاضركم غائبكم يا إخواننا في الطاعة

ويتبع هذا النوع من التضمين المردود الاستخفاف الآثم بالمفردات ذات الدلالة المقدسة مثل قول خليل حاوي:

وبكوخي يستريح التوأمان: الله والدهـــر السحيق

الحكم الشرعي في التضمين:

جاء في كتاب"الحاوي للفتاوي" للإمام السيوطي في باب رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن

أخرج الترمذي وحسنه عن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنـــة في الأرض وفســـاد كبير." وقد سبقني ـــ أي سبق السيوطي ـــ إلى الاحتجاج بهذا الحديث على التمثـــل بنظم القرآن الحافظ أبو بكر ابن مردويه.

وأضاف:ومن الأحاديث التي يستدل بها لجواز تغيير بعض النظم بإبدال كلمة أو زيادة أو نقص ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً فلما أصبح خرجـــت يهـــود بمساحيهم ومكاتلهم...

فقال صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قـــوم فســـاء صباح المنذرين.

وقال السيوطي: قالوا وإنما يكره ضرب المثل من القرآن في المزح ولغو الحديث وأمـــا الاقتباس في الشعر فلم ينص عليه المتقدمون مع شيوعه في عصورهم فسكوتهم وعـــدم نصهم علي تحريمه يدل علي أنهم رأوه جائزاً كضرب الأمثال والاقتبـــاس في النثـــر، وأصرح من ذلك أن من الأئمة من استعملوه في شعرهم، كقول عبد القاهر التميمي البغدادي.

يا من عدا ثم اعتدي ثم اقترف ثم انتهي ثم ارعوي ثم اعترف

أبشر بقـــول الله في آيـــاته: "إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف"

ومثل قول أحمد بن محمد بن يزيد ــ ورواه البيهقي في شعب الإيمان:

سل الله من فضـــله واتقـــه فـــإن التقي خير ما يكتسب

"ومن يتـــق الله يجعـــل له ويرزقه من حيث لا يحتســـب"

وفصل السيوطي فقال: الاقتباس ثلاثة أقسام:

- مقبول وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود وفي مدحه صـــلي الله عليـــه وسلم.
- ومباح وهو ما كان في الغزل والرسائل والقصص.
- ومردود وهو ما كان في الهزل والخلاعة.
- ومن العلماء من كرهه ورعاً لا تحريماً.

أما علماء البيان والفصاحة فلم يكتفوا بإباحته أو تحليله بل جعلوه من حسن الكـــلام وجيده ومعدوداً في طبقات الفصاحة. (انتهي قول السيوطي)

وعلى ذلك، ومن كل ما أوردنا نخلص إلى أن:

التضمين القرآني في الشعر ليس محرماً في حد ذاته، وإنما يحرم منه ما يحرم من كل قول آخر ويكره منه ما يكره منه.

ضوابط التضمين القرآني المقبول:

نستطيع أن نضع هذه العلامات تحديدا للمســـاحة التي يتحرك فيها الشاعر ولا يتحرج عندما يأتي بتضمين قرآني في نصه:

- ألا يدعي أنه من قوله أو يظن أنه به يطاول القرآن ويحاكيه، ومن أظلم ممن قـــال سأنزل مثل ما أنزل الله.
- ألا يأتي في تضمينه بشيئ مما أختص الله تعالي به نفســـه، ســـواء كـــان هـــذا الاختصاص من القول مثل حروف افتتاح بعض السور:ألم، طس،... إلى آخره. أو القسم بشيء من مخلوقات الله الذي ورد في القرآن وأقسم به الله ولا يجـــوز لعباده أن يقسموا به مثل ما نرفضه من الشاعر الإسلامي صابر عبد الدائم ونعده انزلاقا يجب عليه الاعتراف به والنهوض منه في قوله في قصيدة الفزع الأكبر.

" والطـــــــور "

" وكتاب مسطور "

" في رق منشور"

"والبيت المعمور"

"والسقف المرفوع"

"والبحر المسجور"

"والشعب المقهور"

"والقدس المشطور"

"والأقصى المهجور"

"قد جاء الأمر وفار التنور"

"والعالم يغرق في الدينور"

"من ديوان المسافر في سنبلات الزمن"

وكذلك كلمات التسبيح والذكر التي لا تقال إلا لله، مثل قول الشاعر محمد العزب في قصيدة "في البدء كان الجسد"من ديوان" تجليات شتى لامرأة ملأى بالفراشات":

(تعالى الجنـــــس)

(سبح للدم الملكوت)

(جل جلال الرغبة) والأقواس من وضع الشاعر !!

وكذلك إن كان الاختصاص من الصفات التي استأثر بها الله تعالى لنفسه، مثل ما انزلق إليه الشاعر فقال:

يا بني طاهر أتتكم جنـــود الله والمـــوت بينهما مثبور

في جيوش إمامهن أبو أحمد"نعم المولى ونعم النصير"

- أن يتجنب من الآيات المتشابه فالله تعالى يقول:

"فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا."(آل عمران / 7).

- ألا يسف إلى العبث والمجون أو إلى الاستهتار بالقرآن والسخرية منه، وأن يحتفظ بالحد الأدنى ـــ على الأقل ـــ من شرف الغرض ونبل المقصد.

- ألا يستعمل التضمين القرآني في معنى يتعارض مع القيم الإيمانية أو تعاليم الإسلام.

- ألا يدخل على النص القرآني من التغيير ما يوحي بتحريفه أو يدخل به في شـــبه ذلك مثل قول الشاعر محمد العزب في قصيدة "اعترافات مغتصبة" مـــن ديـــوان "فوق سلاسلي أكتبني"

"فبأي معونة ربكما البتاحون تكذبان"

- أن يكون الاجتزاء ـــ إن كان اجتزاء ـــ عند موضع لا يتلف المعنى، كما أتلـــف المعنى قول الشاعر:"بل قال ربك ويل للمصلينا".

فإذا توقف الشاعر دون هذه المحاذير، وأيقن أن التضمين من القرآن الكريم نفحة قرآنية وهبة ربانية وحالفه التوفيق وأسعفته الصنعة فتضمينه إن شاء الله مما يتوج قصـــيدته ويرفع درجته.

وقديما قال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتي فأول ما يجني عليه اجتهاده

الموضوع:في صورته المعاصرة:

تقف الأمة الإسلامية الآن في مرمي السهام من الأعداء الصرحاء ومن المنافقين الاخفياء ولسان حالها قول المتنبي:

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال علي النصال

وممن يفرزون سمومهم في نبع القرآن الصافي ويحاولون تلويث المشرب الطاهر بعض الكتاب والشعراء فيخرج علينا بين الحين والحين مقال أو قصيدة، ديوان أو كتاب، يحرف النص أو يغمز القرآن أو يطعن فيه أو يستبيح قداسته أو يناقض مضمونه، ويردد هؤلاء مقولة شيطانية:"نحن نسقط التابوهات"، وهذا الإفراز السرطاني يحاصر الغيور في مأزق ويوقع المسلم في حرج، فإن طالب بإسكات هؤلاء أو رد على ترهاتهم علا صوتهم وارتفع صراخهم:يا لشعارات حرية التعبير، ويا للحجر على الإبداع، واتهموا الإسلام بخنق الفن ونفي الحوار ومعاداة الأخر، والإسلام أعلن منذ نزول القرآن الجدال بالحسنى في إطار:

"وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سبأ / 24)

وقال:

"قل هاتوا برهانكم" (النمل / 64)

وقال:

"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم" (الأنعام/ 108).

فما الحل؟!

إنني في هذا المضيق وأنا من عوام المسلمين – لا أفتقد الطمأنينة بصفة فردية إن وقفت في مربع تحرسه آيات أربع من كتاب الله الكريم:

تقول الأولى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"(الحجر /9)

وتقول الثانية: "إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا" (فصلت / 40)

وتقول الثالثة: "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فـأعرض عنـهم حـتى يخوضوا في حديث غيره" (الإنعام / 68).

وتقول الرابعة: "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع النـاس فيمكـث في الأرض." (الرعد / 17)

لكن هذه الطمأنينة لا تنسحب على من يتيح أو يبيح ولا على من يساعد أو يسـاند من أفراد أو مؤسسات، سواء بمال أو جهد أو منصب في هذا العدوان على كتاب الله ودينه، فهو بهذا شريك في العدوان وحسابه على الله.

ونحن في حاجة إلى وقفة للمجامع اللغويـة واتحـادات الكتـاب والأدبـاء والمرجعيات الفقهية، لا لتحجر علي الكلمة وتئد الإبداع، ولكن لترسـم الخطـوط الفاصلة بين الحرية والعدوان، وتضع الحدود المعتمدة بين مالنا وما علينا، في عصر رفع أهلوه شعار الدفاع عن الملكية الفكرية وسنوا القوانين الحامية لها.

والقرآن الكريم كلام الله لا يدعي أحد ملكيته، لكنه كتاب المسلمين المقدس والاعتداء عليه اعتداء على كل مسلم.

فهل تستجيب هذه الهيئات والمؤسسات فتعلن ضوابط معترفاً بها من الجميع للتضمين من هذا الكتاب العزيز ؟!آمل ذلك، وبهذا أوصي.

خاتمة:

وبعد،

فقد دخلت إليكم من باب أثري جميل في متحف هذه المدينة الفاتنة، فهل لي في الختام أن أعود من باب آخر؟ إنه باب في مصر: بلدي وبلدكم. فاسمحوا لي أن أعرض لقطة خاطفة من ذكرياتي أضاءها الاقتباس من القرآن الكريم.

منذ نيف وعشرين عاما كنت أعمل وأقيم في عاصمة عربية شقيقة، وذات ليلة كنت أقرأ سورة يوسف في كتاب الله الكريم، ولفتت نظري الآية التاسعة والتسعون فتوقفت عند هذه العبارة:

"وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين"

وقالت لي نفسي – وليست على الدوام أمارة بالسوء–:

كيف تكون هذه العبارة في كتاب الله ولا نتخذها شعاراً نتوج به مداخل مصـــر ؟! وأمر من تحتها عند عودتي ؟!.فكتبت بما داخل نفسي إلى إحدى المجـــلات المصـــرية، فنشرت، فاستجابت الجهات المعنية لاقتراحي، ونفذته.

ومع أنني كنت أتوق إلى أن تكون صورة هذا الشعار من الشموخ والسموق على ما يناسب وروده في القرآن العظيم، إلا أنني كلما دخلت مصر من تحت هـــذه اللافتـــة البسيطة المباركة اغرورقت عيناي، وظننتها عند الله حسنة جارية، ودعوت الله تعالى أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن وأن يفتح لنا مغاليق كنوزه.

المصادر و المـراجـــــع:

* القرآن الكريم.

- مباحث في علوم القرآن..... منـــــــاع القطـــــــان
- مذكرات في علوم القرآن..... د. لبيـــــــب السعيـــــــد
- لســـــان العـــــرب ..... ابـــــــن منظـــــور
- المعجـــــم الوسيـــط ..... مجمع اللغة العربية بالقاهـــرة
- العمدة في فنون الشعـــر ..... ابـــــن رشيق القيروانـــي
- الحاوي في الفتـــاوي ..... الإمـــــام السيوطـــي
- الاقتباس من القرآن الكريم ..... أبو منصور الثعالبـــي
- ظواهر التأثر بالقرآن الكريم ..... د. صابر عبد الدائم (بحث على الانترنت)
- دواوين بعض الشعـــراء ..... وردت أسماؤهـــــم
- مجلـــة أكتـــوبر القاهريـــة .... دار المعـــارف.الأعـــداد 334، 337، 343.